الإهداء

إلى أبنائى الأعزاء

إسراء، ونور الهدى، ويوسف

obeikandl.com

مقابلة المصطلحات القديمة بالحديثة

المصطلح القديم	المصطلح الحديث
الحيل الهندسية	علم الميكانيكا
الكحالة	طب العيون
الكحال	طبيب العيون
علم الهيئة	الفلك
الطبيعيات(الطبيعة)	الفيزياء
القصّاب	الجزّار
علم المناظر	علم الضوء
العمران	علم الاجتماع
مراكش	المغرب
علم البلدان	الجغرافيا
بحر القُلزم	البحر الأحمر
العلوم الحكمية	الفلسفة، والمنطق
علم العدد(الأعداد)	الحساب

obeikandl.com

المصطلح القديم	المصطلح الحديث
علم الفلاحة	الزراعة والبساتين
الرياضيات	الحساب والهندسة
الكرْمَة	أشجار العنب
مقالات	مذاهب
الزيج(لفظة فارسية)	الجداول الحسابية المستخدمة في الأرصاد الفلكية
الجرائحي	الجرّاح

obeikandl.com

مقدمة

العبقرية والنبوغ:

أدرك العربى القديم معنى النبوغ، والعبقرية، وربما كان أول من عرّفها، وأشاد بها فى مجال الشعر الذى كان هو الفن الوحيد الذى يستطيع به التفريق بين العادى، والمتميز من البشر، وبعد الإسلام ميز الرسول الكريم بين أصحابه فى القيادة سواء أكانت القتالية، أو المالية، أو التى تنطوى على قدرات خاصة لا تتوافر فى جميع أصحابه، حتى إنه كان يميز فيما دون أصحابه من الكفار فدعا الله أن يعز الإسلام بأحد العمرين، فهدى الله تعالى عمر بن الخطاب للإسلام، فكان أبرز الشخصيات الإسلامية أثرا، وقيادة فى الإسلام..

ولم يكتف العرب، والمسلمون بمعرفة النوابغ، والاحتفاظ لهم بقدرهم فى حياتهم؛ بل تتبعوا أصل النبوغ، والعبقرية فأحالوها إلى موضع فى البادية كثير الجن؛ وهم الجنس الذين يأتون من الأفعال ما يعجز عنه البشر، فقالوا فى الأثر «كأنهم جن عبقر»، وقال ابن الأثير إن الموضع هو «عبقر» وهى قرية يسكنها الجن فيما زعموا، وقال زهير؛ أصل العبقرى صفة لكل ما بولغ فى وصفه؛ فنسب كل شىء جيد إلى عبقر، وقد أشادوا بالنبوغ فقالوا؛ عبقرى القوم سيدهم، وقالوا؛ العبقرى الذى ليس فوقه شىء، والعبقرى؛ الشديد، والعبقرى؛ السيد من الرجال، وهو أيضا الفاخر من الحيوان، والجوهر، والعبقرية؛ هى المرأة الجميلة، ويعدد ابن منظور فى «لسان العرب» استخدام العرب لهذا المصطلح فى الحالات المتميزة من التفوق، والبروز..

ويعود مصطلح العبقرية فى الغرب إلى كلمة جاءت فى الأصل اللاتينى **Genius** تشير إلى الروح، أو القوة الإلهية التى تحفظ الإنسان من المهد إلى اللحد، كما تشير إلى الروح الذكرى المهيمن فى البيت، أو الأسرة كرأس العائلة، أو الأب، ويبدو المصطلح فى تعريفه لدى العرب أرقى كثيرا لدى

obeikandl.com

الغرب؛ ربما بسبب تأثير الرسالات السماوية فى العقلية العربية؛ فجعلوا القوة الإلهية فى مرتبة أعلى من العبقرية التى ما هى إلا إلهام إلهي يتميز به بعض البشر دون الآخرين، وهو ما أكده القرآن الكريم فى قوله تعالى:

- «يزيد فى الخلق ما يشاء» فاطر(1)..

أما العلوم الحديثة المعنية بالمصطلح فقد عددت تعريفاته لتتفق فيما بينها بالإشارة إلى القوى، والطاقات، والإنجازات العقلية الفائقة، فهى محصلة لتفاعل خاص بين الملكات التى تنتمى إلى المستويات العليا من القدرات الخاصة بالذكاء، وكذلك المستويات العليا من القدرات الخاصة بالإبداع، والخيال..

ومن ثم فماهى نسبة العلماء، والمخترعين بالنسبة لعدد السكان فى أى دولة قديمة، أو حديثة، بل فى أكثر الدول تقدما، وتفوقا؟.. هى نسبة 1 % أو ربما أقل من ذلك، وعندما تتخلف الدول، وتتقهقر - قبل السقوط - يصبح العلماء، والمخترعون كائنات خرافية، فيمتطى الكهنة، ورجال الدين رأس الدولة (خاصة إذا كان ضعيفا، وفاشلا) بالسخرية، والكيد لهؤلاء، وإثبات أن تدهور الدولة، وتأخرها بسبب وجود هذه الكائنات الغريبة التى جاءت فى غير الزمان، وفى غير المكان، أما فى العصر الحديث فقد تكفلت بهم الأعمال الفنية المختلفة، والإعلام الجاهل، ومواقع التواصل الاجتماعى الهائمة، التى يمكن توجيهها بسهولة..

دولة الفقهاء:

كان الفقهاء، والمتكلمون، والفلاسفة أهم الجماعات المتميزة فكريا فى التاريخ الإسلامى، وقد ظل الفقهاء كأحد هذه الجماعات فى معركة غير متكافئة ضد الفئتين الأخريين حتى قضوا عليهما فى نهاية المطاف، وظل المتداول من العلوم الطبيعية فى عصر الاضمحلال اجترارا لما سبق، فكثرت الموسوعات التى صنف بعضها الوراقون(أصحاب المكتبات)..

يصف المقدسى بلاد ماوراء النهر، وخراسان فى كتابه «أحسن التقاسيم»:

- «إنه أجل الأقاليم، وأكثرها أجلة، وعلماء».. إلى أن يقول:

- «فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك»..

وشاع تقديس الفقهاء، وتقديمهم فى أمور الحكم على طول العالم الإسلامى، فلا يُبت فى قرار إلا

obeikandl.com

بحضورهم؛ حتى إن يوسف بن تاشفين أحرق كتب الغزالى بفتوى من فقهاء المالكية فى المغرب حتى تواكل العباد، واسترخى الخلفاء، وركن الجميع إلى الدعة، والكسل، وإهمال أحوال الدنيا طمعا فى الآخرة كما صورها لهم الفقهاء، فضعفوا، وتقهقروا..

وهؤلاء القليلون الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية فى العصر الإسلامى، وأضافوا إليها مثل ابن سينا، والبيرونى، والخوارزمى فقد كانوا منتسبين إلى الحضارات القديمة التى صهرها الإسلام فى بوتقته، ولم يكونوا فى غالبيتهم عربا، وجذبهم إلى الإسلام سماحته، واستيعابه لكافة البشر، ولكن ما إن سار الإسلام خطواته السريعة فى الزمان، والمكان حتى هب البعض ممن لا موهبة لهم سوى حفظ النصوص، وتجويدها من الروايات العديدة، مع الصوت العالى فتشدقوا بها على العامة المطحونين فى تحصيل القليل من القوت لذويهم، وأولادهم فتركوا أمور الدين لهؤلاء، الذين ظنوا فى أنفسهم العلم – جهلا، وغرورا – ولأن العامة لم تصادف ما صادفوه من حفظ، وتجويد لا يقدر عليه إلا من تمتع بالفراغ، والانتهازية إما بعائلته الثرية، أو بصبره على الحرمان، والعوز فقد لجأ إليهم العامة فيما غمض عليهم من أمور دينهم، وأحاطوا بهم فأصبحوا قوة تتسامى إلى قوة الدولة، والسلطان فكانت الدولة فى عنفوانها تسيطر على هؤلاء الغلاة بقوتها، وتحد من سلطانهم على الناس، وفى حالات ضعف الدولة، وانحدارها يعلو صوتهم، فتصبح لهم اليد الطولى على الدولة، والسلطان الذى جمع حوله كل العقول فى مختلف العلوم، فيصبح على هؤلاء إخماد ما دونهم من الأصوات باسم الدين والحرص عليه، تماما كما بُلى بهم الإسلام فى بداياته مع على بن أبى طاب فكان الحفاظ، والقرائون البلاء الداهم على الأمة إلى يومنا هذا..

وإذا نظرنا فى الدين نجد فيه الثوابت التى لا تتغير، وبالتالى فأتباعه يدورون دائما فى فلك هذه المعتقدات، والأدهى، والأمر إذا انحرف البعض منهم عن هذه المعتقدات ممن ليس لهم دراية، أو نظر فحرفوها عن مواضعها، أما فى شئون العبادات، وبعض المعاملات فقد خاض فيها الفقهاء، ورجال الدين حتى ظنوا أن هذا هو كل العلم، ولاعلم سواه، وقطعوا – جهلا، وغباء - بأن العلم لا يكون علما إلا إذا كان شرعيا، ومن هنا دخلوا بالمسلمين غيابات الكهف المظلم إلى يومنا هذا، فخرج المسلمون جميعهم بلا استثناء من التاريخ الإنسانى الذى سطروا فيه كثيرا، ولكنهم توقفوا عندما جهلوا أصول الكتابة، وتطور أدواتها التى لم يعودوا يمتلكونها..

وفى سبيل تظاهرهم بتحكيم العقل، والمنطق حولوا الدين من كونه إلهيا إلى دين بشري بما حاكوا به طرق العقلانيين الفلسفية، والمنطقية - مع نقدهم المرير للمنطق، والفلسفة – ولم يفطنوا

كثيرا إلى ما قاله على بن أبى طالب عن هذا الخلط فيما رواه أبو داود، والدارقُطنى:

- «لو كان الدين بالرأي، والعقل لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، لقد رأيت رسول الله يمسح على ظاهر خُفيه»..

تخلف المسلمون لأن العلم الشرعى هو العلم الإسلامى الذى ينبغى أن يتعلمه المسلم إذا طلب العلم، وأى علم آخر فهو فى حساب الفقهاء، ورجال الدين ليس علما، والطامة الكبرى فى اعتقادهم أن العلم الشرعى علم مكتمل الأركان، امتلك الحقائق النهائية، والمطلقة، وقد قال فيه السلف ما قالوا، ولا معقب لما قالوه، ولا سبيل لاجتهاد الخلف، ومن هنا حكم على العقلية الإسلامية بالتوقف، والجمود، التوقف عند العلم الشرعى، وتحريم كل علم دونه، وتكفير من يدعو إلى غير ذلك، والجمود على ما قال السلف الذين عاشوا زمن السيف، والجمل، فجعلوهم سيفا مصلتا على رقاب المسلمين برؤيتهم للدين، واتخذوهم ألوية، وأعلاما يقودون راكبى الطائرات، والسيارات من فوق الجمال، واعتبروا أى تغيير، أو خروج عليهم، أو إعمال التفكير فيما قالوا، وفسروا، وفهموا خروج على الدين..

كان الذهبى - الفقيه - مثلا يسمى الكتب التى تسجل فيها نتائج رصد النجوم، والكواكب(الزيج) كتب الهذيان، ويقول إنها مدرجة تحت مسمى يؤلف فيه أهل العته، والبلاهة من أصنام الدين تحت مسمى كتب «حذر منها العلماء»..

وقد وصموا بعض الكتب التى جاء بها الفلاسفة من أرباب العقول، والطبيعيون من أرباب المعقول بالسحر، الذى كان مقترنا بالكثير من علوم هذا العصر، وهو ما نجده أيضا فى الكتب التى لم يرموا مؤلفيها بالزندقة، والكفر من كتب الطب مثل تذكرة داوود وغيرها، فلم تجد منهم من اعترض عليها لأنه العلم الذى كانوا ينتفعون به انتفاعا شخصيا، ويتماشى مع مصالحم، أما ما جاء فى كتبهم من الروايات الكثيرة جدا التى نقلوها بلا عقل، أو تمحيص عن المعاتيه، والحشاشين، والمنافقين، وأعداء الأمة فهو منتهى العلم، وضموه ظلما، وجورا إلى الشرع، وصاحب الشريعة على أنه من المسلمات..

رفض الأصوليون جميع أصناف الفلسفة – كما صرح الغزالى - بما فى ذلك حقائق علمية كخسوف القمر، وكسوف الشمس..

حتى فى عصر العلم الحديث، والعقل يخرج علينا شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق فى التليفزيون الذى اخترعه أحفاد اليونانيين بعقولهم ليقول:

- «أخطأ اليونانيون قديما حينما استمسكوا بالعقل، واعتبروا بمنطقه، وأخطأنا نحن حين أخذنا عنهم هذه النقيصة»..

ويقول الشيخ الشعراوى عن الغرب:

- «إن الله منحهم العلم، والعقل ليشقوا بهما كالأنعام، وينتجوا لنا، ونحن نستهلك على الجاهز مما أعطانا من بترول، وغيره»..

ولا يرى رجال الدين المعاصرون خلاصا لهذه الأمة من كبوتها، وتأخرها – بزعمهم - إلا بإقامة الدولة الإسلامية التى تطبق شرع الله فى كل شأن لتنال رضاه حتى يتدخل لنصرتها لأنها أخلصت له الدين، وسوف يكون هؤلاء بلا شك على رأس هذه الدولة المتدينة بشرع الله، وسيكون الحكم ألعوبتهم، وسيكون الناس ألعوبة الحاكم اللعبة، ولكنها تظل أمنية ينظر إليها المسلم المعاصر بعين الريبة؛ خاصة من التمس العلم وسار فى حياته بالعقل والمنطق، وبهما يدرك أن حضارة اليوم هى حضارة الرصد، والقياس، فكيف سيستطيع هؤلاء الفقهاء قياس إيمان الأمة، ومعايرة تطبيق شرع الله المقسم بين المذاهب، والجماعات التى يدعى كل منها الحق، والصدق حتى تستطيع الأمة معرفة أين هى من رضا الله عليها، ومن ثم استحقاقها التدخل الإلهى بالنصر، والغنيمة من عدمه..

ولكى يظل هؤلاء الفقهاء، ورجال الدين متمددين فوق عرش البلاد على رؤوس العباد فسوف يتقدمون بحل آخر كالصبر، والانتظار، فإذا نفد الصبر، وجاء التدين بطريقة عكسية من هزيمة، وفقر، وديون، وغلاء فاحش فسوف يتقدمون بحل آخر وهو أننا أثبتنا بذلك أننا مؤمنون حقا حسب قانون «المؤمن مصاب»، وهو بين البلاء، والابتلاء، وهكذا بحيث يظلون متربعين فوق صدر هذه الأمة حتى تزهق أنفاسها إلى غير رجعة، فقد أكد لنا أحدهم فى خطبه الجامعة أيام الجُمع أن أسعار اللحوم غالية عند الجزار لأن لحوم نساء الأمة عارية، فإذا غطى النساء لحمهن فسوف تتهاوى أسعار اللحوم عند الجزار، وبعد سنوات لاحظنا الانتشار الكاسح للحجاب؛ بل والنقاب أيضا، ومع ذلك ظلت أسعار اللحوم تلتهب عند الجزار حتى تضاعفت أكثر من 200 مرة..

كان الفقهاء قوة لا يستهان بها فى الدولة الإسلامية رغم أن الإسلام لم يأت بكهنوت، وكانت قوتهم تعادل قوة الكنيسة فى العصور الوسطى فى أوروبا، والفرق أن الكنيسة - كهيئة، ومؤسسة - كانت تتعامل مباشرة مع هؤلاء الذين تراهم خارجين عن تعاليمها، بينما كان فقهاء الدولة الإسلامية - كأفراد – يركبون أعنة السلاطين، ويوجهونهم نحو هؤلاء الذين يختلفون معهم فى الرأى، وتجلت هذه القوة فى وضوح حال ضعف الدولة، والسلطان..

وآفة الفقهاء الحفظ، يقول زكى مبارك فى كتابه «الأخلاق عند الغزالى»:

- «فمن الواضح أن حفظ الكتب عن ظهر قلب حتى لا يتبقى إلى حفظها حاجة، آفة عظيمة فى تكوين العقول، فليست قيمة العالم فيما يحفظ، ولكن قيمته فى حسن الفهم، وأصالة الرأى، وصواب الحكم»..

وهو أسلوب التعليم الذى مازال متبعا فى مصر، والبلاد الإسلامية، ففى مصر التفوق غير المبرر الناتج عن حفظ المناهج الدراسية، وحصول الطلاب على أكثر من 100%، بما يعتبر خارج الحساب المنطقى، فلم يخرج لنا هذا النوع من التعليم مخترعين، أو مبتكرين، ولكن حفاظا تقليديين كأطفال الكتاتيب يرددون ويببغون بما لا يدركون، وللأسف يصفق لهم الناس، ويشيدون بحفظهم، ولا يدرون أنهم أضافوا بهم نسخا جديدة من الكتب المحفوظة، وأهدروا عقولهم التى ميزهم الله بها عن سائر المخلوقات..

وكان الفقهاء سببا فى تفرقة الأمة إلى فرق، ومذاهب، فقد أدى نشوء المذاهب المختلفة، وحرص أتباعها على هوياتها، ومبادئها المختلفة منذ أن وضعها مؤسسوها (وقد لا يعلمون أنهم قد أحدثوا فى الإسلام، وحكموا على أنفسهم بأن الإحداث بدعة، والبدعة ضلالة، والضلالة فى النار) إلى يومنا هذا، وفشلهم الذريع فى تأسيس مبادئ شرعية شاملة تفرض نفسها على حياة الأمة، وحياة غيرها من الأمم؛ كما حدث فى تطور القانون الغربى الذى أخذ منه المسلمون لعدم كفاية أحكام الشريعة لما ظهر من مستجدات العصر الحديث، فانحصرت الشريعة فى أمور الأسرة، والأحوال الشخصية، والميراث..

نقل الفقهاء عن بعضهم البعض دون اطلاع على المصادر، وتقييمها من متون، وتلاميذ للشخص المراد تشويهه أولا، ثم رميه بالزندقة، وتكفيره، ومن أين أتت لهم القوة لنقد، وتشويه ما هو بعيد جدا عن فنهم، وعلمهم، وربما إدراكهم، مع أنهم لم يكونوا كذلك مع رجال السلطة الحاكمة من خلفاء، ووزراء، وأمراء، التى لم تكن تتهاون مع أى منهم مهما علا شأنه، إذا نظر إلى هذه السلطة بعين النقد، أو الريبة، فإذا وقعت الفريسة بالفعل، فلا راد لكلام الفقهاء علماء الدين، والدنيا، والدليل أن الفرائس كانت من بينهم أحيانا، فالويل، كل الويل لمن عارض الفقهاء، أو خالف فهمهم، أو اختلف معهم فى قراءة نص من النصوص، والأمثلة كثيرة تغص بها كتب الأخبار، والتراجم، علاوة على المنافسة الشديدة جدا بينهم إلى درجة ألا يطيق أحدهم الآخر من فقهاء عصره، وإلا لما كثرت المذاهب الفقهية، فالدين واحد، والإله واحد، والرسول واحد، والقِبلة واحدة،

والكتاب واحد، ولكن الأهواء كثيرة، ولو كان الأمر دينا لما حدث أدنى اختلاف، ولكنها المصالح، ولم يقصد الرسول الكريم العامة من المسلمين حين قال «أخشى أن تأتيكم الدنيا فتنافسوها»، فهؤلاء هم المتنافسون، ولو كان المقصود عامة المسلمين فعلى أى شيء سيتنافسون؟.. على الفقر؟.. أم على الحرمان؟.. أم على الجهل؟..

فإذا اطلع أحدهم على المتون فهو اطلاع نقل أيضا، بمعنى نقل جزء من المتن عن طريق آخر(رواية)، فربما فهم هذا الآخر المتن بطريقته التى عادة ما يقرأون بها النصوص، وهى الدخول على النص بما يريده هو من النص، وليس النقد المحايد الذى يفرغ فيه ذهنه من أي مسلمات سابقة عن هذا الشخص، وهذه هى مشكلة كتب التراث فى الدخول على النصوص بالدخول على أصحابها أولا بما سمعوه عنهم، يقول زكى مبارك فى كتابه «الأخلاق عند الغزالى»:

- «وقد كانت الأوساط الفقهية، ولا تزال تعتقد أن لصلاح المؤلف تأثيرا فى الانتفاع بمؤلفاته، ولو كتب فى الحساب، والنجوم»..

حتى كتاب الله لم يسلم من ذلك عندما دخلوا عليه بنصوص التوراة، وبالروايات التى لا حصر لها، يقول الذهبى فى «سير أعلام النبلاء» نقلا عن ابن الجوزى ينتقد ابن الراوندى:

- «كنت أسمع عنه بالعظائم، حتى رأيت له ما لم يخطر على قلب»..

فكما قلنا إنه «سمع»، ولما رأى لم نفهم ماذا رأى؟.. وما هو فهمه لما رأى؟.. وما هو وجه الانتقاد؟.. وماذا قال تلاميذه، وأصحاب هذا الفن فيما كتب؟.. ثم يقول عن كتابه «الزمردة»:

- «فيه هذيان بارد لا يتعلق بشبهة»..

فما الأمر إذا لم تكن هناك شبهة، وما هى العظائم التى رماه بها؟.. لا شيء، فهو أيضا يهذى.. ولكنه يرتزق بهذا الهذيان..

ثم يأتى الذهبى ليطلق المبدأ الذى دمر حياة العقل الإسلامى، وجعله فى أسفل سافلين حتى أصبح مثالا للجهل والتخلف فيقول:

- «لعن الله الذكاء بلا إيمان، ورضى الله عن البلادة مع التقوى»..

فهل هناك نص فى الكتاب، أو السنة الصحيحة تقرن تقوى الله بالبلادة، والخمول؟.. وهؤلاء من قالوا عنهم علماء الإسلام، فما بالك بعوام الإسلام الذين كان هؤلاء العلماء يحتقرونهم..

وينتقد أيضا أحد المثقفين من الذين جمعوا كل سؤدد – على حد وصفه – وعرف الفلسفة، وضرب العود(هواية)، والنجوم(وهو من العلوم التى كان يجيدها نبى الله إبراهيم عليه السلام،

obeikandl.com

فاستحق من الله أن يطلعه على ملكوت السموات، والأرض) فيقول:

- «إن علمه هذا، الجهل خير منه»..

هؤلاء هم فقهاء الأمة الذين كانوا يستحسنون الجهل لها، حتى يضمنوا العيش الدائم فى النعيم كلما طالت بهم الحياة، مع احتفاظهم بحقهم فى جنة الخلد إذا انقلبوا إلى الله، ولتذهب الأمة إلى جحيم المستعمر الغازى لتنقلب بهذا الجهل عبيدا له، ثم عبيدا لكل الأمم التى تستحسن العلم وتستفيد منه..

يقول ابن قدامة الفقيه الحنبلى عن علم الكلام:

- «ما من أحد درس علم الكلام إلا أصيب بفساد فى عقله»..

ويستشهد بقول الشافعى:

- «حكمى على أشياع الكلام أن يضربوا بعراجين النخل، وأن يعرضوا على القبائل، وأن يعلن على الملأ أن هذه هى عقوبة من ترك الكتاب والسنة، واتبع الكلام»..

ولا ندرى من أين جاء الشافعى بهذا الحكم الذى لم يرد فى كتاب، ولا سنة، إلا أن يكون موضعه فى الإسلام كالفقيه الحجاج الثقفى الذى قتل الآلاف من المسلمين المختلفين معه، ومع الدولة، فهل نصب الشافعى نفسه جلادا على من تكلم بغير الكتاب والسنة، بما لم يرد عن الله ورسوله؟..

يقول زكى مبارك عن الفقهاء فى كتابه «الأخلاق عند الغزالى»:

-«والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا، فهم يعرفون أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم، وضعف الشعوب، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى المُلك والقوة فى هذا الوجود، وفى مقدور المرء أن يجد مئات الكتب فى وصف الحشر، والنشر، ولا يجد كتابا واحدا فى تحديد المراد من الخلافة الإسلامية التى قامت بسببها آلاف الفتن، ومئات الحروب»..

فى السيرة النبوية حادثة لم يعرها الفقهاء، ورجال الدين بالا إلا روايتها ربما من باب المُلح، والطرائف عندما اقترح النبى صلى الله عليه وسلم على أصحاب النخل ترك تأبيرها(تلقيحها فى موسم التزاوج بين المذكر منها، والمؤنث)، لتوفير الوقت، والمال، والمجهود كملاحظة من النبى، وتجربة شخصية قابلة للتطبيق إذا ثبت نجاحها، وهذا كله بمعزل عن الوحى، والاتصال بالسماء، ولكنها كانت تجربة علمية إنسانية بحتة كان من الممكن تدخل الوحى بإبطالها، أو النهى عنها،

أو حتى من باب ترك هذا العبث العلمى التجريبى الإنسانى، فليس هذا شأن الرسالات، والمرسلين على عادة الفقهاء فى تناولهم ما لا يعنيهم، بل وعدم التفرقة بين الدينى، وغير الدينى الذى لووا لها أعناق النصوص الواضحة، وأسباب نزولها، فأذلوا بها عقول المسلمين، وحالت دون التقدم، والابتكار حتى جعلوهم فى ذيل الأمم، وكان لابد من أن تأخذ التجربة وقتها، والانتظار إلى العام التالى لبحث النتائج، وإحصاء الفوائد، ولكن كانت النتيجة هى نقص الإنتاج، وتدهوره، ولم يبد النبى أسفه، ولا أصدر أمرا بتعويض المتضررين ولكنه قال:

- «فإنى إنما ظننت ظنا، ولا تؤاخذونى بالظن».. وقال أيضا:

- «وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر»..

إذا فقد ترك النبى صلى الله عليه وسلم الوحى - ولم يعاتبه الوحى، ولم يؤاخذه على ذلك - ومارس مع المسلمين المنهج العلمى التجريبى Experimental Science لكى يلفت أنظار المسلمين إلى أهمية العلم، والتجربة كمنهج حياة بما ليس له أى علاقة بالدين إلا أخلاق الأمانة العلمية..

قاعدة يريد أن يضمنها رسالته للبشر عامة، وللمسلمين خاصة فكانت المحصلة من التجربة:

- «أنتم أدرى بشئون دنياكم»..

ويقول صلى الله عليه وسلم ناصحا، ومستندا إلى تجربته الشخصية - وليس وحيا - فى مناسبة أخرى عن الخيل:

- «عليكم بالأدهم الأقرح»..

و«الأدهم» من الخيل شديد السواد، و«الأقرح» فى جبهته بياض يسير..

ولما كان إصرار الفقهاء، ورجال الدين فى كل عصر هو التدخل بإبداء الرأى فى مسائل خارجة عن نطاق علمهم، تماما كما فعلوا من قبل فتسببوا فى البلبلة، والسخرية، ولهذا يجب أن يدرس رجال الدين المعاصرون النظريات العلمية الحديثة على أيدى متخصصين، وممارسة بعض التجارب العلمية الخفيفة ليس فقط للاستظهار، والتشدق بها - على طريقتهم العقيمة فى الحفظ، والاستظهار دون تدخل عقلى - فى الخطب المنبرية كالعادة، ولكن من أجل الاستنارة، واتساع الأفق، والنظرة إلى الأمور بشمولية، ومعايشة الواقع العصرى، ولايجب أن تقتصر دراساتهم على آراء الفقهاء فقط فى المسائل المختلف عليها منذ مئات السنين..

وهذا الاتجاه الذى سرى لدى الفقهاء المسلمين بداية من الغزالى، ومن بعده ابن تيمية - على الرغم من أن ابن تيمية كان من خصوم الغزالى، إلا أنه أكمل ما بدأه الغزالى - وهو إقحام الدين

فى كافة شئون الدنيا، وتحميله ما لا طاقة له به بلا تفكير، ولكنه حماس لا يتجاوز سذاجة الأطفال، فالدين تتوقف حركته عادة فى الزمان الذى نزل فيه فهو ثوابت تعبدية، وأخلاقية، وسلوكية لا تتغير، فإذا جاء الدين بالصلاة فسوف يؤديها المسلمون كما أخذوها عن الرسول الكريم، وتعلموها إلى يوم القيامة بلا تغيير، ولو أقر الدين فضيلة الصدق مثلا، وأن الصدق منجاة فسوف يظل فضيلة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بينما يتقاصر دور الدين فى ممارسة المسلم لشئون حياته المعيشية التى تتطلب مهارات ليس للدين بها أى شأن مثل مهارة حفر الآبار، وشق الترع، واستصلاح الأراضى، وإقامة الصناعات، والحرف التى لا يستغنى عنها المسلم، ولا يقوم بها وحده كصناعة الأحذية، والملابس، والصناعات الغذائية التحويلية، وما يتبع ذلك من تصنيف، وترتيب، وإعداد وهى مجالات أوسع كثيرا من الدين فهى ليس لها حدود مكانية، أو زمانية، وهى تخضع عادة للتطور، ولا يليق فيها الثبات فقد تطورت وسائل المواصلات مثلا من الخيل، والبغال، والحمير إلى السيارات، والطائرات فما أثر الدين فى ذلك؟.. وما شأنه بهذا التغيير؟.. وهو ما زال على ثباته منذ القرن السادس الميلادى ولا يملك أحد تغييره، ولا يُعقل ذلك..

فالقرآن مثلا قد صنف قسما من الأحياء إلى أصناف كبرى فى معرض كلامه عن جنس الحيوان، فنوه عن تلك الأصناف التى تمشى على بطنها(مثل الزواحف)، والتى تمشى على رجلين(مثل الطيور)، والتى تمشى على أربع(مثل الثدييات)، وهو ما تطور فى العصر الحديث ليواكب الآلاف من الكائنات التى لم تكن معروفة، وتطور على ذلك علم تصنيف الكائنات Taxonomy إلى أصناف جديدة، وأصناف تشعبت عن أخرى تحدث عنها القرآن مثل تلك التى تمشى على رجلين، والتى تمشى على أربع، وعرف العلم كائنات تمشى بقدم واحدة كالقواقع، والأصداف، كما عرف كائنات تمشى على ثلاثة أزواج من الأرجل وصنفها كالحشرات، وكائنات تمشى على أربعة أزواج كالعناكب، والعقارب، حتى تلك التى تمشى على أكثر من عشرين زوجا من الأرجل، فإذا كان الدين قد أعطانا مثلا لتصنيف جنس من أجناس الكائنات منذ أربعة عشر قرنا؛ فها هو التصنيف قد اتسع هذا الاتساع الهائل والذى أصبح علما متخصصا قائما بذاته له علماؤه، ومؤسساته، وأقسامه الجامعية، وامتد إلى المملكة النباتية من أجل تصنيفها على أسس ثابتة بحيث لا تختلط بغيرها، فهل للدين دخل فى هذا؟..

فلماذا إذا إقحام الدين فيما لم يأت من أجله من شئون الدنيا إلا أن يضمن الفقهاء التحكم فى أعناق المسلمين بالرضا عليهم، أو رميهم جزافا بالزندقة، والكفر، وهى الأسلحة التى أشهروها –

حتى - فى وجوه بعضهم البعض من أجل الأموال، والمناصب، والحظوة لدى السلاطين، والخلفاء، والأمراء فلم يكن أحدهم ذا مهنة(سوى أبى حنيفة الذى كان تاجرا موسرا) فاحتقروا المهن، وهونوا من شأنها، ورموا محترفيها بالعامة، والرعاع، وهم الذين كانوا فى ميزان الدولة أفضل منهم لها، لأن العمال، وأصحاب الحرف، والمهن هم عصب الدولة، وكتلتها الصلبة، وهم الذين كانوا يتحولون وقت الحرب إلى مقاتلين يدفعون عن الدولة أعداءها، ويقاتلون من أجل حماية هؤلاء العاطلين بالوراثة، والعالة على الدولة، وعلى الناس، والسلطان باسم الدين، وهو ما أثر على المسلمين وتطورهم مع الزمن، فقد أدخلوا شئون الدنيا المعاشة فى الدين فراح المسلم يتمسك بالدين الذى ليس فيه سوى الخيل، والبغال، والحمير فتوقف عندها، وانطلق البشر نحو السيارات، والطائرات فكانت النتيجة أن أصبح المسلم هو المستهلك الوحيد فى العالم المنطلق بما أنجزه فجاوز فيه سرعة الصوت، وهو ما زال يسير بسرعة الخيل، والبغال، والحمير ولا أمل فى سرعة أكبر من ذلك مع هؤلاء الذين جعلوا الدين بفكرهم القاصر، وتصورهم الساذج مطية لهم يركبونها وقتما شاءوا وهو لم يأت لذلك، بل جاء ليسير مع الإنسان أينما سار، وبأى سرعة سار بها..

إن الدين الذى اهتم بفضيلة الصدق قد قسمها أفضل تقسيم، وميز الصادقين عن غيرهم، فهذه فضيلة جاء الدين من أجلها فاعتنى بها، وفصلها، وضرب لها الأمثال، أما الكائنات، والمعايش فقد تركها كلية للإنسان لكونه أدرى بشئون دنياه، ومصلحته فيها كما بين رسولنا الكريم، وضرب الأمثال لذلك كما بينا..

فإذا جاء من يقوم بالرصد، وحساب مطالع القمر، والنجوم سخروا منه، ورموه بالتنجيم، والكفر، واستهجنوا الرصد، والحساب فقد جاء الدين بكل شىء:

- «صوموا لرؤيته(الهلال)، وأفطروا لرؤيته فإن غُم عليكم، فأتموا عدة شعبان ثلاثين يوما»..

ونسوا أن العلم ملكة إنسانية قد أعطى الله للإنسان من أجلها آلة تتعامل معه، وميزه بها عن سائر المخلوقات، بل فضله عليها بهذه الآلة التى يستعين بها على البحث، والاكتشاف:

-«ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» الإسراء(70)..

وجعلها مناط التكليفات الشرعية من عبادات، وأخلاق، وسلوك، وتسقط عنها هذه التكليفات إذا غاب هذا العقل، أو خامره، أو خالطه شىء، حتى حرم عليه الخمر، والسُكر من أجله رغم ما قد يكون فى الخمر من فائدة للمعدة، فحرمه على المعدة من أجل هذا العقل، ثم جاء الفقهاء ليوصدوا

أبواب العلم فى وجه المسلمين، ويبطلوا استخدام عقولهم، وحرموا عليهم البحث، والاكتشاف، فالدين وحى، وفيه الكفاية التى تلغى العقل، ولا تجعل له قيمة إلا فى تلقى ما أمر به الوحى فقط، فلا تنظر إلى السماء إلا لكى تبدأ صومك، وإذا جاء من يقسم أنه رأى الهلال، فعليك أن تنصاع لما رأى هذا، وتبدأ صيامك، وإن لم يكن هذا، ولا ذاك فصم فى اليوم التالى، هذا كل ما فى الأمر، فمالك إذا والبحث، والاكتشاف، والفتنة..

وقد جعلوا القرآن للقصص، والحكايات، فتباروا فى الروايات، والحكايات وتركوا القرآن، ولم ينظروا فيه، فربما أرادوا توسيع دائرة الارتزاق بالدين فيدخل معهم المفسرون، والمتأولون الذى فسروه، وأولوه بالروايات أيضا، فإن أغلق عليهم فهم شىء منه هرولوا أيضا إلى الروايات، فإن لم يجدوا روايات اختلقوها، أو وضعوها، وإلا لما تغاضوا عن تعليم الله لأنبيائه ما يعينهم على المعاش، وقضاء المصالح فى حياتهم على الأرض، فلم يجعلهم ملائكة، ولكنهم بشر من نفس النسيج البشرى، فهو تعالى يعلم نبيه داود:

-«وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم» الأنبياء(80)..

فكان حدّادا تعلم كيف يصنع دروع الحرب، وعلم الله تعالى ابنه سليمان لغة الطير لكى يحكمهم لأنهم كانوا جزءا من مملكته، فكيف يستخدمهم وهو لا يفهم لغتهم؟..

- «وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين(16) وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون(17)» النمل..

ويحدثنا القرآن أيضا عن نبى الله يوسف الذى أتقن فى مصر علوم الاقتصاد، وتدبير الموارد، ودورة فيضان النيل العالية، والشحيحة:

-«قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم» يوسف(55)..

ونبى الله إبراهيم الذى كان عالما فلكيا استخدم هذا العلم فى معرفة الله تعالى، والتيقن من وجوده على خلاف أهل عصره، فكانت مكافأته من الله تعالى أن أطلعه على ملكوت السماوات، والأرض بإمكانيات تفوق إمكانيات أهل عصره:

-«وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين» الأنعام (75)..

ولأنه كان مجتهدا فى هذا العلم(Astronomy)، فزاده الله علما، وكان يسخر من قومه لاستخدامهم هذا العلم فى التنجيم(Asrtology)، وربطه بمصائر البشر، وهو ما نوه عنه القرآن الكريم على لسانه:

- «فنظر نظرة فى النجوم(88) فقال إنى سقيم(89)» الصافات..

ومن هنا لم يقر الكثير من الفلاسفة المسلمين علم التنجيم، ولم يقنعوا كثيرا بارتباط الكواكب بتسيير الحوادث على الأرض، وتقرير المصائر البشرية تبعا للاعتقاد الإسلامى، وبما يخالف الاعتقاد اليهودى بأن الكواكب حاكمة؛ كما ورد فى سفر التكوين التوراتى(1، 14 - 16) الذى يقر بأن الله وضع أنوار السماء ليحكم الأرض، وتبعهم المسيحيون فى ذلك..

فلو قدر أن وجد هؤلاء الأنبياء - الذين علمهم الله، وبعثهم بدينه - فى عصر هؤلاء الفقهاء لكانت السخرية جزاءهم، ولرموهم بالزندقة، والكفر بحجة الحفاظ على الدين الذى لم يدركوا مقاصده، وجعلوه سبيلا للارتزاق، والثراء، والاستعلاء على الناس ليقولوا عنهم علماء الأمة، وهم الذين ضيعوها، وجعلوها لقمة سائغة يلوكها الأعداء، ويمرح فى بلادها الغرباء، ويسبقهم الكفار فى كل علم، وفن وهم ينظرون..

أما الشاطبى فى كتابه «الموافقات» فيرى أن العلم هو ما له ضرورة ظاهرة النفع للأعمال الدينية وما سوى ذلك فعديم الفائدة ويؤدى - بالتجربة - إلى الخروج عن الصراط المستقيم كما نعتها الذهبى «بالعلوم المهجورة»، وبأنها «حكمة مشوبة بكفر» لأنها تؤدى فى النهاية إلى الكفر والاشتغال بهذه العلوم يسير جنبا إلى جنب مع الاستخفاف بالدين ودراسته، وهكذا نراهم قد نصبوا أنفسهم قيمين على الدين، ومحاكم تفتيش أقاموها لكل من تسول له نفسه استخدام العقل، أو العلوم العقلية، أو الاشتغال بها، ولضمان أرزاقهم ومصالحهم..

ويزرى ابن قتيبة بمثقف عصره لأنه:

-«طال عليه أن ينظر فيعلم الكتاب، وفي أخبار الرسول صلّى اللَّه عليه وسلّم وصحابته، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها، فناصب ذلك وعاداه، وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلِّمين، وقل فيه المتناظرون، له ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فإذا سمع الغُمر(الرجل غير المجرب)، والحدث الغر قوله؛ الكون والفساد، وسمع الكيان، والكيفية والكمية راعه ما سمع، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة، فإذا طالعها لم يَحْل منها بطائل: إنما هو الجوهر يقوم بنفسه، والعرض لا يقوم بنفسه، مع هذيان كثير»..

كفَّر القاضى عياض صاحب كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» كل من المتصوفة، والمعتزلة، والشيعة، والفلاسفة، والذميين، ومن يتزيا بزى المسيحيين، ومن ذهب إلى كنائسهم، كما كفر المعرى، والمتنبى، وأبى نواس بحكمه القاطع:

-«يكفر، ويضرب عنقه»..

وكذلك حكم على كل من ينتقد الأحاديث بانكار السنة حتى لو خالف الحديث المنطق، والعلم التجريبى، وحتى لو كان الطالب يتناول إدخال الحكم على صحة المتن إلى جانب صحة السند..

قال ابن القيم عن ابن سينا المعروف فى أوروبا بأمير الأطباء، فأقاموا له التماثيل فى أقدم جامعاتها، ودُرس كتابه «القانون» فى جامعات أوروبا طيلة سبعة قرون فى كتابه «إغاثة اللهفان»:

- «إنه إمام الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر»..

أما الكشميرى فى كتابه «فيض البارى» فقال عنه:

- «ابن سينا الملحد الزنديق القرمطى الباطنى، كان هو وأبوه من دعاة الإسماعيلية»..

أما حديثا فقال عنه الشيخ صالح الفوزان:

- «إنه باطنى من الباطنية، وفيلسوف ملحد»..

أما رأى ابن القيم فى أبى بكر الرازى فى نفس الكتاب:

- «إن الرازى من المجوس، وإنه ضال مضلل، من كبار الزنادقة الملاحدة، يقول بالقدماء الخمسة الموافق لمذهب الحرانيين الصابئة؛ وهى الرب، والنفس، والمادة، والدهر، والفضاء، وهو يفوق كفر الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك، وصنف فى مذهبه هذا، ونصره، وزندقته مشهورة»..

وعن الفارابى قال ابن العماد فى كتابه «شذرات الذهب»:

- «اتفق العلماء على كفر الفارابى، وزندقته»..

ويقول الفارابى فى كتابه «إحصاء العلوم»:

-«وما من شك أن آراء الملل، وكل ما فيها من الأوضاع ليس سبيلها أن يمتحن بالآراء، والروية، والعقول الإنسية لأنها أرفع رتبة منها إذ كانت مأخوذة من وحى إلهى، لأن فيها أسرارا إلهية تضعف عن إدراكها العقول الإنسية، ولا تبلغها»..

فالناس عنده متفاوتون فى العقل فلو عرض الوحى على العقل حدث الاختلاف، كما يحدث الآن بين المسلمين عندما يعرضون الدين الموحى به على العقل..

فيقول قائل إن الحكمة من تحريم الخمر إنما فى المفاسد التى تنشأ عنها، فإذا ما انتفت هذه المفاسد فلا مانع من شرب الخمر..

والفارابى(وهو المعلم الثانى لدى الأوروبيين) قالوا فيه أيضا:

- «من أكبر الفلاسفة، وأشدهم إلحادا، وإعراضا كان يفضل الفيلسوف على النبى، ويقول بقدم

obeikandl.com

العالم، ويكذب الأنبياء، وله فى ذلك مقالات فى إنكار البعث، والسمعيات، وكان ابن سينا على إلحاده خير منه»..

أما ابن تيمية فقال عن الخوارزمى:

- «وهو المشهور باختراع «الجبر والمقابلة» وكان سبب ذلك - كما قال هو - المساعدة فى حل مسائل الإرث، وإنه وإن كان علمه صحيحا إلا أن العلوم الشرعية مستغنية عنه، وعن غيره»..

أما الجاحظ فقد قالوا عنه:

- «من أئمة المعتزلة، تنسب إليه فرقة الجاحظية، كان شنيع المنظر، سئ المخبر، ردىء الاعتقاد، تنسب إليه البدع، والضلالات، وربما جاز به بعضهم إلى الانحلال»..

وقال عنه الخطيب:

-«إنه كان لا يصلى، ورمى بالزندقة، كذابا على الله، وعلى رسوله، وعلى الناس»..

وعن ابن الهيثم قالوا:

-«إنه كان من الملاحدة الخارجين عن دين الإسلام، من أقران ابن سينا علما، وسفها، وإلحادا، وضلالا، كان فى دولة العبيديين الزنادقة(الفاطميين)، وكان سفيها زنديقا كأمثاله من الفلاسفة يقول بقدم العالم، وغيره من الكفريات»..

وقالوا عن أبى العلاء المعرى:

-«إنه كان من مشاهير الزنادقة على طريقة البراهمة الفلاسفة، وفى شعره ما يدل على زندقته، وانحلاله فى الدين»..

ذكر ابن الجوزى أنه رأى له كتابا اسمه «الفصول والغايات فى معارضة الصور والآيات» على حروف المعجم، وقبائحه كثيرة..

وعن نصير الدين الطوسى قالوا:

-«إنه نصير الشرك، والكفر، والإلحاد، فيلسوف ملحد ضال مضل، كان وزيرا لهولاكو، وهو الذى أشار عليه بقتل الخليفة، والمسلمين، واستبقاء الفلاسفة، والملحدين، حاول أن يجعل كتاب الإشارات بدلا من القرآن، وفتح مدارس للتنجيم، والفلسفة، وإلحاده عظيم»..

وعن ابن بطوطة قالوا:

- «الصوفى المشرك القبورى الكذاب، كان جل اهتمامه فى رحلته المشهورة زيارة القبور، والمبيت فى الأضرحة، وذكر الخرافات التى يسمونها كرامات، وزيارة مشاهد الشرك، والوثنية، ودعائه أصحاب

obeikandi.com

القبور، وحضور السماعات، ومجالس اللهو، وذكر الأحاديث الموضوعة فى فضائل بعض البقاع، وتقديسه للأشخاص، والافتراء على العلماء الأعلام، وغير ذلك»..

وعن يعقوب ابن اسحق الكندى قالوا:

- «فيلسوف من أوائل الفلاسفة الإسلاميين، زنديق منجم ضال، متهم فى دينه كإخوانه الفلاسفة، بلغ من ضلاله أنه حاول معارضة القرآن بكلامه»..

ورد عليهم الكندى كاشفا سواءتهم، وارتزاقهم من التجارة بالدين:

- «هؤلاء من أهل الغُربة عن الحق، وإن توجوا بتيجان الحق دون استحقاق، فهم يعادون الفلسفة ذبا عن كراسيهم المزورة التى نصبوها من غير استحقاق؛ بل للترؤس، والتجارة بالدين وهم عدماء الدين»..

وهو يعتبر بذلك أول من تحدث فى الإسلام عن تجار الدين المرتزقة..

أما ابن المقفع فقالوا عنه إنه كان مجوسيا فأسلم، وعرّب كثيرا من كتب الفلاسفة، واتُهم بالزندقة، قال عنه الخليفة المهدى:

- «ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع»..

وشككوا فى وجود جابر بن حيان فقال الزركلى فى كتابه «الأعلام»:

- «إن حياته كانت غامضة، وأنكر بعض الكتب وجوده».. بينما أثبت ابن النديم وجوده، ورد على منكريه، فكان جزاؤه إدخاله إلى محاكم التفتيش، والحكم عليه بأنه رافضى معتزلى غير موثوق به، فقال ابن حجر:

- «ومصنفه «فهرست العلماء» يُنادى على من صنفه بالاعتزال، والزيغ»..

ويبدو من كلامه أنه لم يطلع على الكتاب، ولكنه «يُنادى عليه»، ولم يذكر من الذى نادى عليه بالاعتزال، والزيغ، ولا نستطيع تبرير هذا الكم الهائل من الغل، والحقد على عباد الله على الشبهة، ودون تمحيص بعد أن نصب نفسه قيما عليهم..

ثم جاء الكاهن الأكبر ابن تيمية ليفتى فى هذه أيضا - كذبا، وزورا - بعدم وجوده تماما كالمنجمين، أو مدعي النبوة، وبأنه شخصية غير موجودة، ويفتى أيضا فى علم لا يدرى عنه شيئا، ويصمه جهلا، وغلوا بأنه سحر، وطلسمات فيقول:

- «وأما جابر بن حيان صاحب المصنفات المشهورة عند الكيماوية فمجهول لا يعرف، وليس له ذكر بين أهل العلم، والدين»..

أما ابن خلدون – الفقيه – فقد تعطف عليه، وأعطاه مسحة الوجود لكى يتشفى فى علم الكيمياء، ومن اشتغل بها فيقول:

- «ولو أثبتنا وجوده فإنما نثبت ساحرا من كبار السحرة فى هذه الملة، اشتغل بالكيمياء، والسيمياء، والسحر، والطلسمات، وهو أول من نقل كتب السحر، والطلسمات»..

وللعلم لم يخل كتاب من كتب العصور الوسطى من الخرافات، وربما الطلسمات حتى كتب الفقهاء امتلأت بالخزعبلات، والجهالات التى لا تغفر لمن تصدر فى الحكم، والقضاء بين الناس بأحكام الشريعة؛ كما خدع النساء كل فقهاء هذه العصور، وأوهموهم أن الحمل يمكن أن يمتد إلى أربع سنوات(أيضا عن طريق الروايات، ولكنها نسائية هذه المرة) وما يترتب على ذلك من إثبات النسب، والميراث لمن لا يستحقه، ولم يكفرهم أحد، أو يزندقهم على الأقل كما فعلوا هم بالعباد فيما فهموه، وفيما جهلوه..

وابن شاكر قالوا عنه فيلسوف موسيقى منجم من الذين ترجموا كتب اليونان، وأبوه موسى بن شاكر، وأخواه أحمد، والحسن منجمون فلاسفة أيضا..

ولم يتركوا شيئا للعرب، والمسلمين إلا وبخوه، وحطوا من شأنه بحجة حماية دين المسلمين من المسلمين فتروج تجارتهم بلا منافس، وليتملقوا الحكام، ويستزيدون من عطاياهم، فأول محاولة طيران يعتز بها المسلمون كانت «لعباس بن فرناس» الذى قالوا فيه:

- «فيلسوف موسيقى مغن منجم نُسب إليه السحر، والكيمياء، وكثر عليه الطعن فى دينه، واتُهم فى عقيدته بالإضافة إلى ذلك؛ شاعرا بذيئا فى شعره مولعا بالغناء، والموسيقى»..

ويطول الوصف حيث يكون الطول، ورص الاتهامات على الشبهة، والسماع بقدر شهرة الشخصية، ولا نرى إلا أنها نطاعة هذا الشيخ، أو ذاك فيما لا يعنيه من أمر الناس المنحرفين، فعليك بالسائرين فى الطريق المستقيم فقد أوصى الله رسوله بأتباعه خيرا، والابتعاد عن خصومه:

-«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا» الكهف(28)..

فلا أدرى مبررا لتتبع هؤلاء إلا الفراغ، والاستحواذ على الدنيا باسم الدين، والمصلحة الشخصية، ورغد العيش الذى كانوا فيه..

وقالوا فى اليعقوبى المؤرخ:

- «رافضى معتزلى، تفوح رائحة الرفض، والاعتزال من تاريخه المشهور»..

obeikandl.com

واتهموا «البتانى» الراصد بأنه صابئ، وفيلسوف، ومنجم، وقال عنه الذهبى:

- «كأنه أسلم»..

أما المسعودى فمصيبته أنه شيعي، والشيعة من ألد أعداء فقهاء السنة، وعداوتهم لهم أشد من عداوتهم لليهود، فقد وصموا الدين بخرافات، وترهات اليهود، ولم يكلمهم أحد، فأدلى الكاهن الأكبر ابن تيمية بدلوه فى تقييم هذا العدو الذى لم يشف صدورهم رميه بالاعتزال، فقال فى كتابه عن التاريخ:

- «وفى تاريخ المسعودى من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله تعالى، فكيف يوثق فى كتاب قد عرف بكثرة الكذب؟»..

والناقد المحقق الذى قرأ، وأمعن يورد لنا شيئا من هذه الأكاذيب، أو يؤلف كتابا تاريخيا يضاهى به تاريخ المسعودى، وهو الذى كان معروفا عنه كثرة التصانيف، ولكنه التشويش، والتعميه على الناس، والادعاء بمعرفة كل شىء، وهو من غرور الجهل كما بينا..

والرحالة الآخر ابن جبير ماذا فى رحلاته، وحكاياته عنها، وملاحظاته على الناس، والأماكن التى زارها فلم يتركوه حتى قالوا فيه:

- «ويظهر من رحلته تلك تقديسه للقبور، والمشاهد الشركية، وتعظيمه للصخور، والأحجار، واعتقاده بالبدع، والخرافات»..

وفى ابن مسكويه قالوا:

- «كان مجوسيا فأسلم، وتفلسف، وصحب ابن العميد الضال، وخدم بنى بويه الرافضة، واشتغل بالكيمياء فافتتن بها»..

حتى ثابت بن قرة مسيحى الديانة لم يسلم من تشويههم، ونقدهم فقالوا عنه:

- «صابئ كافر، فيلسوف ملحد منجم هو، وابنه إبراهيم، وحفيده ثابت ابن سنان ماتوا على ضلالهم».. وقال الذهبى:

- «ولهم عقب صابئة، فابن قرة هو أصل الصابئة المتجددة بالعراق»..

وقد كان ابن قرة، وأبناؤه أطباء، ورياضيين، وفلاسفة نفعوا المسلمين بطبهم، وعلمهم كثيرا مما نفعهم هؤلاء المرتزقة العاطلين، وهم لم يكتبوا هذه الآراء، ورمى الناس بكل نقيصة باسم الدين إلا بعد موت ثابت، وأولاده، وبعد موت الخليفة الذى كان هؤلاء الأطباء، والعلماء يخدمون فى بلاطه، وإلا لكان جزاؤهم السحل، والتشريد كما فعلوا فيمن كانوا أكثر منهم كرامة، وشهرة مثل

obeikandl.com

مالك، والشافعى، وابن حنبل، وأبو حنيفة..

كان هؤلاء الأفذاذ فى الشرق بجوارهم، وظهر مثلهم فى الغرب(الأندلس) فنالوا منهم كما نالوا من القريبين منهم فى غفلة من الزمن فالمجريطى قالوا فيه:

- «فيلسوف كبير السحرة فى الأندلس، بارع فى السيمياء، والكيمياء، وسائر علوم الفلاسفة، نقل كتب السحر، والطلاسم إلى العربية، وألف فيها»..

وفى ابن باجه:

- «فيلسوف كأقرانه له إلحاديات، يعتبر من أقران الفارابى، وابن سينا فى الأندلس من تلاميذه ابن رشد، وبسبب عقيدته حاربه المسلمون هو، وتلميذه ابن رشد»..

وقالوا فى ابن طفيل:

- «من ملاحدة الفلاسفة، والصوفية، يقول بقدم العالم، وغير ذلك من أقوال الملاحدة»..

وفى ابن رشد:

- «فيلسوف ضال ملحد، يقول بأن الأنبياء يخيلون للناس خلاف الواقع، ويقول بقدم العالم، وينكر البعث، وحاول التوفيق بين الشريعة، والفلسفة، وهو فى موافقته لأرسطو وتعظيمه له، ولشيعته أعظم من موافقة ابن سينا وتعظيمه له، وقد انتصر للفلاسفة الملاحدة فى كتابه تهافت التهافت، ويعتبر من باطنية الفلاسفة، وإلحادياته مشهورة»..

وعن ابن البناء:

- «شيخ المغرب فى الفلسفة، والتنجيم، والسحر، والسيمياء»..

وعن الإدريسى:

- «كان خادما لملك النصارى فى صقلية بعد أن أخرجوا المسلمين منها»..

ورغم توزيع ابن تيمية للاتهامات بالزندقة، والتكفير لأهل العلم المرموقين إلا أنه لم ينس التدليس على الناس بالمدح عند المقارنة بين المسلمين، وغير المسلمين فى العلوم التى يسميها بفهمه القاصر علوما غير نبوية، ولا أخروية كعلم الطب، والحساب ونحو ذلك؛ فيقول فى كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»:

- «هم أحذق فيها من الأمتين(اليهودية، والمسيحية)، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأمتين، بل أحسن علما، وبيانا لها من الأولين الذين كانت هى غاية علمهم، وقد يكون الحاذق فيها من هو عند المسلمين منبوذ بنفاق، وإلحاد، ولا قدر له عندهم، لكن حصل له بما يعلمه

obeikandl.com

من المسلمين من العقل، والبيان ما أعانه على الحذق فى تلك العلوم فصار حثالة المسلمين أحسن معرفة، وبيانا لهذه العلوم من أولئك المتقدمين»..

ورغم أن الحساب كان موضوعا مهما للدراسة فى البلاد الإسلامية من أجل قسمة التركات، واستخدام الهندسة التى وجدها مؤقتو الفرائض، والشعائر الإسلامية ضرورية، مما استوجب اختراع علم المثلثات المستوية، والكرية من أجل التوصل إلى الحسابات الضرورية لتعيين القبلة للصلاة إلا أن ابن تيمية قد وبخ، وحط من شأن هؤلاء الذين أفنوا حياتهم فى هذا السبيل بادعائه أن الدين مستغن عن ذلك، وعن هؤلاء، يقول ابن تيمية فى كتابه «الرد على المنطقيين»:

- «فنحن قد بينا أن شريعة الإسلام، ومعرفتها ليست موقوفة على شىء يتعلم من غير المسلمين أصلا، وإن كان طريقا صحيحا، بل طريق الجبر والمقابلة فيها تطويل يغنى الله عنه بغيره»..

ولكن كيف استطاع العلم الاستمرار فى هذه البيئة الطاردة كل هذه المدة(حوالى ستة قرون)، وبقاؤه بالدفع الفردى فقط دون تأييد الجماهير فى ظاهرة غير مفهومة؟.. - كما أوضح سارتون - بالمقارنة ببقاء العلوم اليونانية، أو علوم القرون الوسطى المسيحية..

الزندقة:

أُطلق لفظ «زنديق» كلفظ غامض بادئ ذى بدء على من يؤمن بالمانوية، ويثبت أصلين أزليين للعالم(النور، والظلمة)، ثم اتسع المعنى ليشمل كل صاحب بدعة، وكل ملحد حتى انتهى الأمر إلى إطلاقه على كل من كان مذهبه مخالفا لمذهب أهل السنة، وكل من كان ماجنا - بزعمهم - من الشعراء، والكتاب..

وعلى الرغم من هذه التعريفات إلا أن الزندقة فى حد ذاتها لا يستطيع الباحث تحديدها، وذلك لضياع كتب الزنادقة - بزعمهم - كلها تقريبا، ولا يوجد منها سوى شذرات نادرة لا توجد إلا فى كتب الذين ردوا عليها من رجال الدين الشيعة، والسنة، وقد اشترك الشيعة مع أهل السنة فى الرد على من أنكر النبوة، حيث يقرن الشيعة أئمتهم المعصومين بالأنبياء مثلما يفعل أهل السنة أيضا فى كثير من الأحيان فيضعون أئمتهم، ومشايخهم فى مرتبة الأنبياء، ويضعون نصوص كتبهم فى محاذاة نصوص القرآن، وربما أعلى، وبالنسبة لكتب الزنادقة فربما كان بعضها مازال مخطوطا لم يقدم أحد على تحقيقها، وطبعها خوفا من الملامة، والتكفير، وعلى ذلك فهى من حيث التحقيق العلمى

الدقيق لا نستطيع أن نبنى عليها أحكاما فى القطع بالحكم علي أصحابها بالزندقة، أو الإلحاد لأنها جاءت فى كتب رجال الدين ناقصة، أو منزوعة من سياقها لنهى الله تعالى عند الوقوع فى الجهل، والتجهيل:

- «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» الحجرات(6)..

وربما كانوا قاصرين عن فهم بعض النصوص، أو أساءوا فهمها، أو أدخلوا عليها شيئا من التبديل، والتغيير بما يبرر الحكم علي أصحابها بالزندقة، والكفر، وليقرأ لهم الناس الذين لا يقرأون أصلا، وبالتالى لا يهتم الناس بكتاباتهم إلا إذا أظهر فيها رجال الدين مجهودهم الخارق الذى بذلوه فى الرد، والدفاع عن الدين الذى لولاهم لضاع إلى أبد الآبدين ـ كما يدعون - فى خضم كلام هؤلاء المارقين الفاسقين، وتجاهلوا تماما أنه تعالى قد تكفل بحفظ دينه حتى منهم أنفسهم، ولم يطلب ذلك من أحد حتى من نبيه الذى بعثه بهذا الدين:

- «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» الحجر(9)..

خصائص العلم:

حرية البحث العلمى من أخطر الثورات الفكرية، والاجتماعية فى تاريخ البشرية، ولذا كان العلم هو العدو الطبيعى للمصالح القائمة كلها الاجتماعية، أو السياسية، أو الدينية بما فيها مصالح المؤسسة العلمية نفسها إذا تحجرت الأفكار، ورفضت كل ما هو جديد.

ومن خصائص العلم أنه إنسانى مدنى علمانى، لا يرتبط كثيرا بالغيبيات، فإن أردنا نسبته إلى الدين، والوحى، فالدين شهد له بهذا الاستقلال، وعندما يصف الله نفسه بأنه عالم الغيب، والشهادة، فهو تعالى يصف نفسه باشتمال علمه على علم البشر؛ الذى هو علم الشهادة التى لا تعتمد على أى غيب اختص الله به نفسه دون خلقه، ونهاهم عن الخوض فيه لأنهم ليسوا - بفطرتهم - أهلا له حتى إنه أنكر على الجن التلصص على بعض العلم الغيبى لقدرتهم على ذلك أحيانا، إذا فعلم الشهادة هو علم بشرى بالدرجة الأولى، ولا يخضع لأى سلطة روحية، أو دينية بحجة بحث مطابقته للحلال، والحرام التى لم يبادر إليه الدين بسبب، فهو يعتمد على المشاهدة، والملاحظة، والتجربة، والمنطق العقلى فقط، وهذه الخصائص هى فقط الحكم بين الصحيح، والزائف منه..

وإذا استعرضنا خصائص العلم، أو الأسلوب العلمى The Scientific Method فمن الممكن تلخيصها فى هذه النقاط:

الحقائق Facts

القوانين Laws

الافتراضات Hypotheses

النظريات Theories

الاستقراء Induction

الاستنتاج Deduction

إن مفهوم العلم الحديث ما هو إلا منظومة من القواعد تجمع بين المشاهدة، والاستدلال، فهو بالأساس يعتمد على الرؤية، والمشاهدة، ودقة الملاحظة، وتأتى موضوعيته عن طريق التجربة، والتوافق المنطقى للوصول إلى الحقيقة بمعزل عن القائم بالتجربة، فلا خلاف أن العلم الحديث هو علم مدنى(علمانى) فى طبيعته، ولا علاقة له بمن يمارسونه فى الزمان، والمكان، وبالتالى فلا جنس له، ولا دين، ولا وطن..

خصائص العلم، أو التفكير العلمى من الممكن تحديدها فى عدة نقاط؛ بحيث لو توافرت فى أى نشاط يقوم به الإنسان يصح أن نطلق عليه نشاطا علميا:

-1 دقة الصياغة، وتحديد المفاهيم والمصطلحات، وإن كان بعضها خاطئا ولكنه متفق عليه، وعليه يمكن التعبير عن النتائج بالكميات، ونسبتها إلى غيرها كميا..

-2 المنهجية بمعنى اتباع طريقة واحدة للوصول إلى النتائج، وقد تتأثر بالعصر، وطبيعة التفكير السائدة، والأدوات المستخدمة..

-3 الموضوعية، والعالَمية وهى انفصال موضوع البحث تماما عن شخص الباحث، واتجاهه ودينه ووطنه وجنسه، فالعلم، والعَالِم لا وطن لهما، ولا دين، ولكنه ملكا للبشرية جمعاء، والعلماء فى أى مجتمع ليسوا أشخاصا معزولين فى مخابرهم؛ بل يعتمد وجودهم على آخرين يقدمون لهم الدعم المؤسسى، ويزودونهم بقنوات لنشر نتائج أبحاثهم، ويمدونهم بالدعم الضمنى..

-4 التراكم المعرفى، والشك المنظم، والثورة، والتجرد للبحث عن الحقيقة دون التأثر بالأهواء، أو المكسب الشخصى، أو الشهرة والمكانة المرموقة، فلا يعمل العَالِم من فراغ، ولكنه يأتى بتراكم معرفى اكتسبه من خلال دراسته للتخصص العلمى بالتدقيق المجرد حسب المعايير التجريبية، والمنطقية،

فكبلر مثلا صاغ قوانينه الثلاثة فى حركة الكواكب حول الشمس بناء على أرصاد تيكوبراهى طيلة عشرين عاما، وقد يخرج العالم بثورة على المفاهيم التراكمية مثلما غير ابن الهيثم مفهوم الرؤية، والنظر إلى الأشياء بسبب أشعة بصرية من العين إلى انعكاس الضوء على الأشياء لتدركه العين، وإلا استطاعت العين الرؤية فى الظلام، ومثلما أخذ آينشتين مجالات القوى الكهرومغناطيسية عن القوالب الرياضية التى وضعها ماكسويل..

-5 النظرة الشاملة للعلوم، وهى لا تنفى التخصص العلمى فى أحد الفروع؛ بحيث تتلاشى الحدود بين العلوم المختلفة مع عدم الإخلال بالتخصص، فعلى سبيل المثال أخذ العلماء فى مجال أجهزة التحليل الكيميائى مصطلح البلازما، وهو السائل الدموى بلا مكوناته من الكريات الحمراء، والبيضاء، والصفائح الدموية عندما جردوا ذرات العناصر من شحناتها الخارجية السالبة(الإلكترونات) تماما، وقياسها بدون إلكترونات(وهو أساس قياس العناصر فى أغلب أجهزة القياس الكيميائية)..

فإذا أردنا تطبيق هذه الخصائص على الدين كدين(وليس كعلم) لا نستطيع ذلك إلا إذا سايرنا الاتجاه الخلطى، والمزجى من أصحاب الطبيخ الفكرى..

وكلمة علم بالعربية لا تزال تحمل فى معناها رواسب القرون الوسطى، ومن ثم فلا نستطيع مقابلتها بكلمة Science الإنجليزية الحالية تمام المقابلة، وقد ترسخت عناصر البحث العلمى، وانتشرت فى الغرب قبل ظهور مصطلح العَالِم Scientist فى القرن التاسع عشر، حيث لم يبدأ استخدامها إلا بعد أن صاغها «وليم وى ويل Whewell» فيلسوف العلم فى جامعة كمبردج على غرار كلمة Artist، فلم يجد وليم فى اللغة الإنجليزية كلمة تدل على جماعة الكيميائيين، والرياضيين، والفيزيائيين، ودارسى العلوم الطبيعية مجتمعين، على الرغم من أن المصطلح قوبل أول الأمر بالرفض، والاعتراض..

ومن تعريفات العلم اليوم أنه مجموعة المعارف الإنسانية التى تؤدى إلى رفاهية الإنسان، وتساهم فى صراعه مع قوى الطبيعة من أجل البقاء، ولكن من ناحية أخرى فمن العلم ما قتل، فهناك علماء متخصصون فى ابتكار أسلحة الدمار الشامل، والقضاء على الجنس البشرى، وحضارته، وربما أرضه التى يعيش عليها، وليس له أرضا سواها..

وهناك علوم نتحصل عليها بدافع الفضول الغريزى فى نفس الإنسان كعلوم الفلك، والرياضيات البحتة، وهى علوم تجريدية حافزها إشباع الرغبة فى العلم، وليس بالضرورة علما مطلوبا للحياة، والمعاش..

وقد تعرض العلم طوال التاريخ البشرى للهجوم المرير؛ سيما من قبل أتباع المعتقدات الدينية باعتباره عملا شيطانيا موجها نحو تدمير القيم، والأخلاق التى جاءت بها الديانات السماوية، وهو يعد عملا شيطانيا فعلا على وجه من الوجوه كما عبر عن ذلك «روبرت أبنهايمر -Robert Oppenheimer» عالم الطبيعة الأمريكى، وقائد فريق البحث الذى صمم أول قنبلة ذرية ألقيت على «هيروشيما»، و«ناجازاكى» باليابان، فعرف بأبى القنبلة الذرية حيث عبر عن شيطنة العلم الذى يمثله علماء الطبيعة فقال:

- «إن علماء الطبيعة قد تعلموا الخطيئة»..

فإذا ما قال قائل إن هذه الحضارة خلفت دمار المدن، وفناء الإنسان، فهو - لا شك - يجهل الشخصيات الشرسة التى برزت فى التاريخ كقوى ذاتية مدمرة، قامت أيضا بتدمير المدن، وفناء الإنسان بوسائل غاية فى البدائية، ليتساووا مع أصحاب وسائل الدمار الحديثة، ومع ذلك ستبقى لهذه الحضارة مخلفاتها القاتلة، ونفاياتها غير القابلة للتحلل..

فمع فداحة ما خلفه العلم من كوارث بيئية من جراء طمع القائمين عليه، وتسرعهم فى الحصول على الفوائد، والأرباح العاجلة إلا أنه سيظل هو الرفيق الوفى للإنسان فى حياته على الأرض، والسبيل الوحيد لحل مشاكله، وسيطرته على الطبيعة، وتعويض ما استنزفه منها، وإن لم يتنبه المسلمون لهذا فسوف يصبحون هم الضحية الأولى لهذا العلم بالتخلص منهم كالنفايات، ومن استهلاكهم للموارد، وذلك لكونهم عبئا على القائمين عليه..

وفى القرآن الكريم نلمح آية ليست ككل الآيات - لم يأبه لها المفسرون كثيرا - ندركها فى سياق الذين يدعون شيطنة العلم عندما يذكر هؤلاء الصفوة من الجن، والإنس الذين منحهم الله لنبيه سليمان ليقيموا له ملكه العريض الذى دعا الله أن يمنحه إياه، فبعد أن يخبرنا تعالى بكم الأعمال، والمهام التى قاموا بها، مع وجود طائفة شريرة، وبعيدة كل البعد عن الأعمال، والإنجازات العلمية الدقيقة من أجل إقامة مُلك سليمان؛ ليثبت لكل ذى عقل أن العلم ليس شرا كله؛ فهؤلاء من يجعلونه كذلك، ويجب عزلهم حتى لا يكونوا ذريعة للكسالى، والبلهاء من كارهى العلم، والعقل، والابتكار:

- «وآخرين مقرنين فى الأصفاد» ص(38)..

وهى نعمة يمن الله بها على نبيه سليمان، إذ كيف سيكون هؤلاء المصفدون بالأغلال فعالين فى إقامة هذا الملك؟.. هؤلاء هم أمثال روبرت أبنهايمر هذا ورفاقه الباحثين، وهو ما وصم به

كل علماء الطبيعة على غير الحقيقة، فمنهم الكثير جدا الذى ابتكر ما يسعد البشرية، ويزيد من راحتها، ورفاهيتها، ومن هنا فقد منعهم الله من الادلاء بدلوهم الشيطانى فى المُلك الممنوح لنبى بعثه الله رحمة بعباده، وهو ما لم يدركه كثير من المفسرين الذى لا يعرفون الكثير عن العلوم الطبيعة، وفائدتها للبشر:

-«يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور» سبأ(13)..

العلم الحقيقى مقترن دائما بالحكمة:

لماذا جاء ذكر هذه الآية فى القرآن وسط النعم التى منحها الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام:

- «وآخرين مقرنين فى الأصفاد» ص(38)..

وهؤلاء هم العلماء، والمهرة الذين لا يفرقون بين الخير، والشر، لأنه يعمل بعلم وحكمة، والحكمة عندما تقترن بالخير، فلا مجال للشر، وكذلك بالنسبة لعمل السحر الربانى من قبل هاروت، وماروت الملكين، فقد علموا الناس السحر المباح الفاضل الذى يطلع الناس على الحقيقة، وليس الخداع كما فى السحر الحرام الذى قلبه الناس إلى التفريق بينهم، والعدوانية، لأن الإضرار بالعلم ليس من طبيعة الملك، ولكنه من طبيعة الشيطان، وهو ما فطن له سحرة فرعون عندما آمنوا بالله، وسجدوا له حال التقام عصا موسى كل حيَّاتهم الباطلة التى حركوها مخادعين الناس بهذه الحركات، فموسى أيضا جاء بالسحر، ولكنه السحر البين الواضح، وليس السحر الخدَّاع الذى يرهب الناس، ويبتزهم فيرتزق منهم، وفى التقام عصا موسى لكل هذه الحيات – بقدرة الله - التى كانت تسعى؛ التقام لهذا السحر المخادع، وإنهاؤه..

ويأتى التقدم العلمى بقدر حاجة الإنسان لهذا التقدم، وإلا فلا فائدة منه، فعملت قوانين نيوتن فى حدود السرعات التى توافرت للإنسان فى هذا الوقت، بما لا يتخطى سرعة الضوء فكانت الميكانيكا التقليدية، وعندما اقترب الإنسان من سرعة الضوء حدثت القفزة فى المفاهيم التى احتاجت إلى آينشتين ليوضحها، وينميها فكانت الميكانيكا الثورية، ومن هنا انتقل إنسان العصر بسرعة من العلم النمطى إلى الثورة العلمية، ثم تصدرت الذرة، والإشعاعات أولويات مراكز البحث فيما سمى بميكانيكا الكم Quantum mechanics، وشغلت بدقتها المتناهية خيال علماء الطبيعة، واختلفت

النظرة إليها هل هى جسيمات، أم موجات؟..

ونشأت مشكلة فى وسائل الفحص التى تمد هذه الجسيمات بالطاقة فتثيرها، وتحركها من مكانها، فاستحال على العلماء تحديد مكان الجسيم مع سرعته، الأمر الذى جعل هايزنبرج Heisenberg يطلق قاعدته الشهيرة عن «التشكيك، أو اللايقين Uncertainty» التى تقول بصعوبة تحديد مكان، وسرعة أى جسيم فى نفس اللحظة، وهى نفس المشكلة التى صادفها علماء الأحياء(البيولوجيا) عند دراسة الخلية الحية، فلكى يتم رصدها، ومراقبة سلوكها لابد أن تقضى عليها سوائل الفحص بالموت، ومع ذلك لم تتوقف المسيرة العلمية عند هؤلاء، أو أولئك، ولم يكن هذا العلم جزءاً من الحضارة الحديثة، ولا القديمة، ولا أثر فى حياة الإنسان على الأرض إلا بعد مولد الثورة الصناعية، وهو ما جعل العلم ينتهى عند الأوروبيين رضينا أم أبينا، وهو ما بشر به البعض منهم بنهاية التاريخ عند هذه النقطة..

لقد أضحت قوة الأمم فى العصر الحديث العسكرية، والسياسية، والاقتصادية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعلوم الحديثة، واستيعابها، والتحكم فيها، مع اقتران هذه القوة بالتكنولوجيا، والابتكار، فأفغانستان، والعراق، ومن قبلهما فلسطين خير دليل على انكسار المسلمين، وسكونهم تجاه هذه القوة الجبارة لهذه العلوم، والتكنولوجيا المرتبطة بها، وهو ما ينذر بخضوع العالم الإسلامى مرة أخرى لحركة الاستعمار التى تخلص منها يوما باسم حركات التحرر الوطنى، وبروز القوميات بعد أفول عصر الإمبراطوريات الاستعمارية، وهو ما يمكن أن ينتهى إليه حال الأقطار الإسلامية التى تستحوذ تقريبا على مراكز الثروة فى العالم..

إن منهجية الغرب علمية إبداعية تدرجت فى الحضارة، وأينعت، وتغلغلت فى كل المدن، والأوساط، فى حين أن العالم العربى، والإسلامى يعيش حتى الآن - فى وجود نفس العقليات مع طبقة تجار الدين - منهجية العصور الوسطى، واتكالية التخلف بحجة التمسك بالدين كتيار عارم يجرف كل ما يعترض طريقه من تجديد، وتطوير..

كان الانتفاع بالعلم هو الخطوة الكبرى فى عصر النهضة الأوروبية عندما استطاعت التفريق بين اللاهوت، والفلسفة، وبين علوم الآخرة، وعلوم الدنيا، فكان من آثار ذلك تحويل حقائق الفلك، والجغرافيا بخصوص كروية الأرض إلى الضرب فى الآفاق غربا من أجل الوصول إلى الأغوار الشرقية من الأرض المعمورة، فكشفوا القارة الأمريكية، والطرق التى تؤدى إليها، وانتفعوا بالعلم السماوى من أجل الحياة على الأرض قبل الحياة بعد الموت، فأصبح العلم، والفكر مسخرا لحياة الإنسان،

ورفاهيته على الأرض قبل أن يغادرها إلى العالم الآخر..

العلم والتكنولوجيا:

لم يكن العلم يوما مرتبطا بالتكنولوجيا، وحتى التكنولوجيا الحديثة فى القرن التاسع عشر لم تكن مدينة بشىء إلى العلم، فقد تطورت اختراعات القرنين السابع عشر، والثامن عشر عن طريق العبقرية التجريبية، فتطورت الديناميكا الحرارية كعلم بعد اختراع الآلة البخارية، ولم تكن هناك إلا استثناءات طفيفة مثل مجالات المعاملات التجارية، وحصر الأراضى، ورسم الخرائط، وأدى التقدم التكنولوجى إلى خلق آليات ضخمة للإنتاج سرعان ما احتضنتها الطبقة البرجوازية التى استطاعت تحويل المسار الاجتماعى من النمط الإقطاعى إلى الرأسمالية الحديثة، فهى تستطيع التنسيق بين وسائل الإنتاج، ولديها القدرة على الابتكار رغم استغلالها للطبقة العاملة حسب تعريف كارل ماركس..

وتطلب وجود هذه الطبقة نظاما قضائيا قادرا على فض المنازعات حول حقوق الملكية، وخصائص العقود، والتبادلات المصرفية، ويستمد هذا النظام القضائى أحكامه من قوانين وضعية عقلانية يتسع فيها التشريع للحالات المتعلقة بمناخ اقتصادى مركب، ومستعد لإصدار قوانين جديدة، وسريعة تواكب ما يستجد من مواقف والتنسيق مع ما سبقها من قوانين، وهو ما لا يتفق مع طبيعة الشريعة المستمدة من الوحى..

أسلمة العلوم:

وتبقى قضية تجنيس العلم، أو ما يطلقون عليه العلم الإسلامى، أو أسلمة العلوم بإثبات أن كل ما هو متاح من اكتشافات، وإنجازات علمية تم التنبؤ به قبل 1400 سنة، وعليه فمن الممكن التكهن بالاكتشافات العلمية من دراسة القرآن فقط – على طريقة ابن تيمية - وظنوا بذلك أنهم قد عالجوا الدونية النفسية التى يعانون منها، أو ربما كان الارتزاق هو الدافع لهذه الاختراعات(هيئة الإعجاز العلمى فى السعودية تسرطنت، وصارت مافيا تتعامل بالمليارات)، إذ صعد فى هذا السبيل شخصيات كانت مغمورة فى تخصصاتها، وفشلوا فيها فشلا ذريعا، ولم يتجاوزوا فيها درجة الموظف

الروتينى، وركبوا الموجة بما تغدقه عليهم دول البترول، والمؤسسات الإسلامية بسخاء نادر أحوج إليه فقراء المسلمين، وأبنائهم على الأقل، أو يرفعون به مخصصات البحث العلمى إلى خُمس الإنفاق الإسرائيلى عليه، والذى يبلغ 5% من إجمالى الناتج القومى لدولة إسرائيل..

وتقام المؤتمرات الدولية من أجل هؤلاء لمناقشة آخر ما توصل إليه هؤلاء الجهابذة الفاشلين من أبحاث يقومون بإلقائها فى هذه المؤتمرات، وقد حرصوا على إطلاق لحاهم التى تتدلى فوق صدورهم؛ ذات الملابس الأوروبية الأنيقة من الياقات المنشاة، تنعقد فى وسطها رابطات العنق الإيطالية الزاهية، فتبدو من نهايات اللحى كما لو كانت امتدادا ملونا لها، أو ذيلا مزهوا بنقوشه، ومنمنماته مع الحرص على ألا تتواصل السراويل مع الأحذية الضخمة، فيتنافسون فى حصرها خجلا فوق الجوارب المخططة، أو المنقطة فيبدو كل منهم كمسخ خرج لتوه من بحر الظلمات، أما أبحاثهم القيمة التى ينفقون عليها من دماء الأمة المنكودة؛ فهى على غرار «التركيب الكيميائى للجن»، و«الكشف عن بعض الظواهر الحديثة للمحيطات فى القرآن»، بل إن أحدهم - وهو رئيس هيئة علمية كبرى فى بلد إسلامى كبير - اقترح الاستفادة من الجن فى حل أزمة الطاقة فى بلده لكونهم مخلوقون من النار، ولا عزاء للأمة..

الحضارة منجز إنسانى، وليس منجزا دينيا بدليل نزول الأديان على الحضارات، وليس العكس؛ حيث إن الحضارة مادية تحتاج شيئا من الروحانيات التى يكفلها الدين السماوى، وعندما تقوم الحضارة يتبعها عادة هيكل ديني كهنوتي، وهذا الكهنوت هو المتصدر فى الحضارات لمجابهة الدين الجديد، والنبى الذى جاء بهذا الدين، ثم تستعين الكهانة بالقوة المادية للحضارة على هذا النبى، ودينه الذى لا يأخذون به إلا بعد اندثار النبى، وأتباعه ليسهل تحريفه لمصلحتهم..

وأخيرا لم يقصد هذا الكتاب أبدا الحكم على الإسلام من واقع تخلف أتباعه فى الدول الإسلامية، فليس من الإنصاف الحكم عليه من خلال إنجازات، أو إخفاقات هؤلاء، فليس كل من يتعاطى الدواء يُشفى به، ومن الجائز جدا أن يموت جراء سوء الاستخدام، ولكنى أردت به رد الاعتبار لرواد الحضارة الإسلامية الذين غمرهم القهر، والجهل، فانطمرت تلك الحضارة إلى الأبد..